الأمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس غابت في عدن

أعدها للنشر/ مروان الجنزير:

هناك عدة مفاهيم يطلق عليها تواجد قوى عسكرية عظمى في بلد غير بلدها كلفظ احتلال، غزو، استعمار، وهذه الكلمة الأخيرة جسدت واقع عدن في فترة من الفترات وذلك على يد الإمبراطورية البريطانيـة والتـي وصفت في القرن التاسع عشـر « بالإمبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس».. فمفهوم كلمة استعمار يظهر جلياً في ما أوجدته بريطانيا من إنشاءات ومشاريع قد لايخدم بعضها سـكان عدن في ذلـك الوقت ولكن يخدم المشاريـع والسياسات البريطانية فقـط فالاستعمار يبني ويشيد لما يخدم مصالحه عكس ماكان عليه الاستعمار الفرنسي الذي جثم على الشقيقة الجزائر دون رحمة أو بصيص أمل يمكن ان تراه هذه الشعوب.

بداية الحكاية

كانـت اليمـن مـع بدايـة القـرن التاسـع عشـر الميلادي مسـرحاً للصراعـات الاستعمارية التي كانت في الماضـي تضرب وتحتل وتقتل سفنهـا ماوجد على مرمى البصر في البحر العربي أو البحر الأحمر بعد افتتاح قناة السويس 1882م تحقيقاً للغاية المرجوة وهي اتساع الرقعة الاستعمارية والتي كانت تمثلها انجلترا.

فبدايـة احتلال بريطانيا لعدن كان في العـام 1802 وذلك عندما عقـدت شركة الهند الشرقية الانجليزيـة الأصل صفقة مع سلطان لحج وعـدن حصلت بريطانيـا بموجبها على امتيازات كبـيرة أهمها السيطرة على أهم مرفىء تجاري وهو مرفىء عدن«صيره» قديماً.

وحتـى تجد الإمبراطوريـة الانجليزية موطـأ قدم السيطـرة على باب المنـدب ويظهر ذلك عندما أجـبرت بريطانيا شركة الهنـد الشرقية في العـام 1819م على وضع حاميـة عسكرية في مينـاء المخا، وبسبب الرسـوم الجمركية المتدنية على البضائـع الانجليزية وخوف انجلترا على مصالحهـا في هـذه المنطقة حيـث رأت انه من الضـروري إيجاد قاعدة ارتـكاز لسفنها ولان يتحقق ذلـك رأت في مرفئ عدن المكان المناسب لموقعـة الجغرافي والملاحي الهام الذي بدأت مفاوضاتها مع سلطان لحج وعـدن وشيوخ القبائل إلا إنها بات بالفشل ولم تر انجلترا من حل آخر سوى ابتكار غاية معينة مضمونها انجلترا من حل آخر سوى ابتكار غاية معينـة مضمونها السفينة التجارية « داريـا دولت» التي مكنت الانجليز بالخديعـة من احتلال عدن، ففي يوم الـ19 مـن كانون الثاني «يناير» 1839م تم الاستيـلاء على عدن حيث قتـل نحو 139 جندياً يمنياً وجرح نحو 25 إما خسائـر الانجليز فكانت 15 قتيلاً و211 جريحاً تقريباً حيث فر السلطان العبدلي إلى لحج، وفوق قلعة صيره ارتفع العلم البريطـاني ، وأصبح القبطـان هاينس أو ل وكيـل سياسي لعدن التي أخضعت لمقر رئاسة بومباي .

بعد الاحتلال

حول الانجليز عدن إلى قاعدة للأسطولين التجاري والحربي وأخذت المدينة تتطور سرعة في حيث كان يعيش في عدن حتى لحظة الاستيلاء عليها نحـو 600 شخص تقريباً ففي ديسمـبر 1842 أصبح يوجد فيها مايعادل 19938 شخصاً بينهم 857 قادمون من أوربا، والبقية من دول الكومنولث ايضاً ومن سياسة المستعمر كان يحرص على بقاء المناطق الداخلية من السلطنات في حالة تشتيت مستمر وتخلف وعدم السمـاح بتسرب دول أخرى إلى هناك وهذا يظهـر في استخدام المبدأ الشهير «فرق تسد».

المعاهدة والصداقة

في 18 يونيـو 1839م عقـدت «معاهدة صداقة» بين شركة الهند الشرقيـة وسلطان لحج اعترف بموجبها بالسيطـرة الانجليزية على عدن، وفي 7 مايـو 1849م عقـدت معاهدة جديـدة» للسلـم والصداقة» ضمـت فيها سلطان لحج حرمـه ممتلكات الرعايا الانجليـز على أراضي السلطنـة، وفي العام 1854 سلـم سلطان مسقط للانجليز جزر» كوريا موريـا» الخمـس والتي غـدت اثر ذلك جـزءاً من المستوطنـة العدنية وفي العـام 1857 احتل الانجليز جزيرة بـرم «ميون» والتي أصبحت مستعمرة وفي العام 1815م احتلت القوات البريطانية جزيرة كمران وفي 1882 اشـترى الانجليز من سلطان لحج مدينة الشيخ عثمان ثلة في العـام 1888م اشتروا قسماً من الساحـل الواقع بين عدن وشبه جزيرة البريقى والمعروفة بـ» ليتل أوف عدن».

مقاومة القبائل

منذ الوهلـة الأولى لسقوط عدن بيد الانجليز لم تهدأ مدفعية السفن الحربيـة الانجليزيـة ولو لشهر واحد بسبب المقاومـة المستمرة من بعض القبائل الذين كانوا يغيرون على المدينة بأسلحتهم البدائية.

ففي العام 1839م توحدت جهود سلطنتي لحج والفضلي بمحاولة للاستيـلاء علـى عدن إلا إنها منيت بالهزيمة ثـم حاول سلطان لحج في الفترة (1840 إلى 1841) لكن اغلب محاولاته باءت بالفشل .

إلا انـه وفي العام نفسه هبت فلول الزعيـم الديني اليمني إسماعيل بـن حسن إلى اقتحام عـدن، ولم يتمكن الانجليز من ردعهم إلا عندما استخدم سلاح المدفعية في أغسطس من العام 1846م.

استطاع الاستعمار البريطـاني منذ 1839 وحتى انطلاق الشرارة الأولى لثـورة الرابع عشر من أكتوبـر عام 1963 نهب ثروات جنوب اليمن وخص التعليم على فئات محددة من الشرائح الاجتماعية ايضاً حتـى يضمن وجوده أطـول فترة ممكنة شرعت الحكومـة البريطانية في بومبـاي على تولي اكـبر عمليات هجرة إلى عدن مـن الهند وباكستان والفلبـين وذلك لتضمن لنفسها شريحـة اجتماعية جديدة تستمع لها وترضخ لمطالبها.

الكفاح المسلح لتحرير اليمن 1963-1967م

عنـد بدايـة الستينيات من القـرن العشرين تعتبر هـذه الفترة فترة انهيار الحائـط الاستعماري، وتنشيـط حركة التحـرر الوطني والعربي عامـة ويظهر ذلـك مع قيـام الثورة في مصـر عـام 1952م ومن ثم دعم الثورات العربية ضـد المستعمر، ففي جنوب اليمن ولدت الجبهة القوميـة كمنظمـة سياسية جماهيرية لأجل النضـال في سبيل التحرر الوطنـي باستخدام الأساليـب المسلحة هذه المرحلـة التي غيرت من الشـارع اليمني وجعلته ينظر الى الاستقلال كحق شرعي منبهاً بذلك الاضطهاد الاستعماري، وسياسيـة الدوس على الحقوق الأولية ونزعة العداء للعروبة.

مافجـر ثـورة الـ14 أكتوبـر من قمم جبـل ردفان وانطـلاق الثورة المسلحـة في 14 أكتوبر 1963م حيث اتسـم بأهمية كبيرة بالنسبة لقادة الجبهـة القومية وتأييد الرئيس جمـال عبدالناصر لفكرة الكفاح المسلح حيـث أبدى استعداده لتقديم السـلاح للمقاومة في ردفان من خـلال وجود القـوات المصرية في شمـال الوطن مما جعـل أبناء ردفان ينتفضون بقيادة راجح بن غالب لبوزة كبداية للثورة المسلحة.

ففي ذلك التاريـخ صف جهاز الأمن البريطـاني والذي كان يرأسه « جوليان بايجيـت» آنذاك عدد أعضاء قبائل ردفـان الخمس الرئيسية بــ35 إلى 40 إلف شخص بينهـم 6-7 آلاف شخص قادرين على القتال وحمل السـلاح حيث لقبوا بذئاب ردفان الحمر» لما يتمتعون به من قنص وحرب العصابات حيث كانوا يغيرون على أمكنتهم في الجبل بلمـح البصر وفي مسافات طويلـة ونتيجة لذلـك كان يصعب القبض عليهم .. فعند بدايـة الانتفاضة المسلحة لجأت السلطات البريطانية إلى القيـام بعمليات تنكيلية فاشلة بحـق الردفانيين من بينها الخطط للقيام بعمليات حربية في عشية عيد الميلاد 1964م تحت تسمية «ناتكريكر» اشتركـت في العملية في البدء 3 كتائب من الجيش النظامي الاتحادي وسرية آليـة اتحادية وفصيلة خيالة (على دبابات مـن طراز» سنتوريون» وبطاريـة من مدفعيـة الحراسة الملكيـة وفصيلتان من السريـة الميدانية للمهندسين الملكيـين، هذا ما مجموعه حـوالي 3-4 آلاف عسكري بالإضافة إلى مساندة القوات الجوية الملكية في خورمكسر والتي أرسلت الطائـرات لقصف أراضي ردفان ووضعت القوات البحرية الملكية تحت تصرف قادة العملية، طائرات عمودية من طراز ««فيبكس».

برغم القساوة التي مارستهـا بريطانيا على سكان الأراضي في ردفان فهـي لم تـؤد إلى النصر بل إنها قوت من عزيمـة المقاتلين مما دفع الجبهة القوميـة إلى إرسال السلاح مـع بداية العـام 1964م، ورواح التأييد الإعلامـي يشـق طريقـة إلى كسب الثقـة وتقويـة روح المناضلين عبر الاذعتين اليمنيتين صنعاء وتعز واذاعة وصوت العرب من القاهرة.

سرعـان ما امتـدت أصـداء الثـورة في ردفـان لتعم مـع بداية عام 1965م كل نواحـي المحافظات الجنوبية خصوصـاً بعد استشهاد الشيـخ راجح بـن غالب لبوزة ثـم وصلت الثـورة إلى كل شارع وكل قريـة وإمارة وسلطنـة، ففي عدن وحدها في نوفمـبر 1967م انتقلت القـوات البريطانية في عـدن الى حماية معسكراتهـا وإحيائها السكنية وذلـك نتيجة تنامي الثورة المسلحـة في أحياء عدن خورمكسر التواهي حيـث كان يجري في اليوم الواحد نحو 16 حادثاً اغلبها بقنابل يدوية تقذف على أفراد البوليس البريطاني وفي 3 نيسان 1967م وقع اكبر عدد مـن الاصطدامات بين فدائيين وعناصر مـن الأمن البريطاني في كل من: كريـتر 24 مواجهة مع قوى البوليس قتل فيها ثلاثة أشخاص وجرح 15 آخريـن بينما تتوزع باقي الإحصائيـات على أنحاء أخرى من المدينـة اعتقل 108 أشخاص وأكثر الصدامات ضراوة وقعت في الشيخ عثمان حيث قام الوطنيون بمحاولة للاستيلاء على الحي.. حيث بلـغ مجمل أحداث ذلـك اليوم 71 حادثة وإصابـة 15 عنصراً من قوى الأمن البريطاني.

لم يستقـر لبريطانيـا التواجد فخـرج جيشها من عـدن في 30 من نوفمبر 1967 تحت بنود وشروط وثيقة الاستقلال والحرية.